# مذكرات من حرب السبعين

وعبرة للمتبرين

كان المرحوم السر تشارلس دلك من نوابغ الكتّاب كما كان من مشاهير رجال السياسة وقد حضر وقائع الحرب بين فرنسا والمانيا سنة ١٨٧٠ ونُشرت بالامس خلاصة ما كتبهُ عنها وفيها من الحقائق والعبر والفكاهات مالا يحسن ان تحرم العربية من نشرهِ فيها فاقتطفنا منها ما يأتي قال ما خلاصتهُ

ذهبتُ من لندن الى باريس في اواسط يوليو سنة ١٨٧٠ لما صارت الحرب بين فرنسا والمانيا قاب قوسين او ادنى فوصلتُ باريس صباح السبت وغادرتها في المساء الى ستراسبرج وزرت متس يوم الاثنين وشاهدت الحرس الامبراطوري في نتسي وعدت الى لندن بعد اربعة ايام . اما الاسباب التي دعت بسمارك الى اشهار تلك الحرب فقد شرحها في سنة ١٨٨٩ لما زرتهُ في فردريكسرو . ثم عدت الى نتسي بعد ثلاثة اسابيع مع صديقيَّ او برون هربرت اشجع رجال السياسة ووتربوثام الذي صار بعدئذٍ وكيل نظارة الداخلية ولقد كان من البلغاء الذين يشقُّ فقدهم على الذين يعرفونهم

اخذنا مكاتيب توصية من سفير بروسيا في لندن ورافقنا جيش ولي عهد بروسيا . ومما استوقف نظري في القسم الاول من الحرب ان اكبر معركة فيهِ وهي معركة ورث وقعت بين البولنديين من الجيش الالماني والمغاربة من الجيش الفرنسوي وقد حارب الفريقان مستبسلين وقلما كان بينهم احد من الالمان او الفرنسويين . وكان مع كل واحد من البولنديين كتاب ترتيل وكثير من الخرطوش اما المغاربة فكان خرطوشهم قليلاً جدًّا وبالطبع لم يكن معهم كتب ترتيل . وقد فتشت عن الخرطوش مع قتلاهم فلم اجد خرطوشة واحدة كأن كل واحد منهم اطلق كل ما معهُ منهُ قبل ان حلقهُ . اما قتلى الجنود الالمانية فوجدت معهم خرطوشاً كثيراً . وكان الجيش الالماني هناك اكثر جدًّا من الجيش الفرنسوي ولم يكن من الحكمة ان يقف ذلك الجيش الفرنسوي القليل امام جيش يفوقهُ عدًّا وعدداً بل كان الاجدر بهِ ان يتقهقر فيسلم . ولقد كانت تلك المعركة بداءة فشل الجنود الفرنسوية فلم تفلح بعدها لان الذين انهزموا منها القوا الرعب في البلاد . وكان في الامكان ان تمنع فرنسا تقدم الجيش الالماني في بلادها بنسف امراب سكة الحديد ولكنها لم تفعل بل اكتفت بنسف

بعض الجسور ( الكباري ) فلم يتعذر على الالمان اصلاحها في ساعات قليلة او ابدالها بغيرها

وكتبتُ الى جدتي بعد معركة وسمبرج اقول «اني اكتب اليك على ورق تركهُ القضاة الفرنسويون في المحكمة والظاهر انهم هربوا من هذا المكان فجأة فلا تزال آثار الصور التي صوَّر بعضهم بعضاً بها وهم جلوس للقضاء على الورق الشفاف» . ونشرت رسالة من رسائلي في جريدة الديلي تيوز تاريخها ١٥ اغسطس وقد تنبأتُ فيها بان الدائرة ستدور على الجيش الفرنسوي . وجعنا مرةً حتى كدنا نهلك ثم تمكنا من ابتياع بعض الطعام من غداء ملك بروسيا . واصاب بسمارك ما اصابنا وقد سألتهُ بعدئذٍ عن قصتهِ فقال لي انهُ كان معهُ غران دوق مكلنبرج والجنرال شريدن الاميركي فخرج يفتش عن شيء يأكلونهُ فوجد خمس بيضات دفع ثمنها خمسة ريالات وقال في نفسهِ ان انا ذهبتُ بهذه البيضات الى رفيقيَّ اضطررت ان اطعم الدوق بيضتين والجنرال بيضتين فيبقى لي بيضة واحدة فاكلتُ بيضتين وذهبت اليهما بثلاث بيضات فأكل كلٌّ منا بيضة . وقد توفي شريدن قبلما اخبرتهُ بما فعلت اما الدوق فاخبرتهُ فسامحني

وكتبت الى جدتي يوم غرفلوت[1] «اني لا اعرف كيف اعود الى انكلترا ومن المحتمل ان اذهب الى باريس حيثما يأخذها الالمان لاني اظن انهم يأخذونها بعد اسبوع او اسبوعين» هذا كان اعتقادي حينئذٍ بعد ما رأيت من فوز الالمان السريع ولكنَّ رأيي تغير فيهم حالاً وصرت اودُّ تركهم لما بدا لي من صلفهم بعد فوزهم ومن رغبتهم في اذلال فرنسا حتى لا يبقى لها شأن في اوربا . ورأيت غوستاف فريتخ العالم السياسي الالماني وكان ضيفاً على ولي العهد فرأيت من فساد ذوقهِ انهُ كان يلبس وسام الجون دونر في ارض فرنسوية تغلَّب عليها الالمان

ثم اتُّهمتُ باني جاسوس فرنسوي فغادرت الجيش الالماني وقطعت الى سويسرا وذهبت منها الى باريس فلندن . وحالما وصلت الى لندن رأيت تلغرافاً في جرائد المساء عن واقعة سيدان فعدتُ ادراجي الى باريس مع الماجور بنج هول وكان يحمل رسائل من الحكومة الى لورد ليونس ( سفير انكلترا في باريس حينئذٍ ) وكنا اول من اوصل خبر سيدان الى كاله

وصباح الرابع من سبتمبر وهو يوم ميلادي ويوم ميلاد الجمهورية الفرنسوية كنت واقفاً مع لابوشير امام الفران هوتل واذا نحن بارطة من الحرس الوطني آتية تمشي الهوينا وتنادي بخلع الامبراطور . وجعل لابوشير يخطب في الجمع تارةً كواحد من مرسيليا وطوراً

(١) [ المنتطف ] غرفلوت Gravelotte قرية بين متز والقوم الفرنسوية حدثت فيها معركة كبيرة بين الالمان بقيادة ملك بروسيا وبين الفرنسويين بقيادة المرشال بازين في ١٨ اغسطس سنة ١٨٧٠

كواحد من الاوباش ومرة كرجل اميركي واخرى كرجل انكليزي ضلعة مع فرنسا . وكنت قلقاً لئلا يخطف الجمع حاسبين اننا من جواسيس الالمان . ووقفت امامنا كتيبة من الفرسان بسيوف مشهورة فخفت ان يهجموا علينا لكنهم اغمدوا سيوفهم وهتفوا لتحيا الجمهورية وانصرفوا . فسقطت الامبراطورية من ذلك الحين ولحال تأتّى خلق كثير ومشوا على الجسر (الكبري) وهم ينشدون المرسليز . وتذاكر النواب في المجلس نحو عشر دقائق وخرج زعماؤهم وكتبوا بالطباشير على عمود كبير من اعمدة المجلس اسماء نواب باريس الذين سُلّمت الى يدهم الحكومة الوقتية . قلت في نفسي لا بدّ للرء من قطعة من الطباشير يوم الثورة . ولما كُتبت اسماء النواب طلب الجمع المزدحم ان يضاف اليها اسم روشفور فاضيف . ثم انقسم الجمع الى فريقين فريق ذهب يفتش عن بول ده كاسنياك ليقتلهُ وفريق ذهب الى محل تمثال ستراسبرج الذي كان مكللاً بالازهار لما بدا من تلك المدينة من حسن الدفاع وذهبت انا مع هذا الفريق وذهب معهُ لابرشير ايضاً وخطب هناك ثم خطب خطبة اخرى في التويلري ودخل الجمع غرف التويلري ولم يمس شيئاً من الاثاث واتخف مع ان رجال البوليس كانوا قد اختفوا من امامنا لان الجمع كان يكرههم وقام رجال من الحرس الوطني مقامهم . وتعشيت في المساء عند لوود ليونس وانا بثياب لم تشهد السفارة الانكليزية احداً يتعشى بمثلها . وسمعنا الجمع ينشدون المرسليز و « الموت في حب الوطن » . وكتبت الى جدتي في اليوم التالي اني ما كنت لابدل يوم امس بملك الدنيا . وقد عاد لوي بلان وغيرهُ من المنفيين

ولم اكن اظن انهُ يمكن ادخال الطعام الكافي الى باريس لتقوى على مقاومة الالمان زماناً طويلاً . وكنت ارى ان الالمان اخطأوا خطأً كبيراً لانهم لم يقطعوا طريق ليون حالاً ولانهم تركوا جيش كانروبر يتصل بجيش بازين ولكن خطأهم في الخالين لم يضرهم بل نفعهم لحسن حظهم . وكان في الامكان ان يحققهم غمتا محققاً لما حصروا باريس بثني الف وعشرة آلاف اذ كان فيها خمس مئة الف ولو تأخر تسليم بازين اسبوعين لما تمكن الالمان من فتح باريس مطلقاً . والفضل كل الفضل في تحصينها وتعزيزها حتى قاومت الالمان ١٣٢ يوماً عائد لجول فافر وغمبتا ولولاهما لفُتحت في عشرة ايام . وكاد سعيهما يتكلل بالنجاح التام فترجع الجنود الالمانية بالفشل ولو تمّ ذلك لتوّج الفرنسويون غمبتا ملكاً . وقد حادثت جول فافر مرةً في نظارة الخارجية الساعة السادسة صباحاً (اي ان جول فافر كان يباشر عملهُ عند الفجر)

وخرجت من باريس في السادس عشر من سبتمبر ورأيت لوي بلان قبل خروجي منها

وكان يشتّ قائظاً وقد سألني عن رأيي فلم استطع ان اقول لهُ شيئاً يطمئنهُ بعدما رأيت من انتظام الجيش الالماني . وقبل خروجي بيوم رأيت جاريشاً واقفاً وحولهُ اناس كثيرون وهو يخبرهم انهُ من اهالي الالزاس وان الالمان اكلوا بقرتهُ . فقالوا لهُ كان حقهم ان يأكلوا ذلك الثور ( يعنون المرشال له بف لان معنى اسمهِ ثور ) فان اهالي باريس كانوا يعتقدون انهُ هو سبب الحرب لان الامبراطورة كانت تعمل بمشورتهِ . وكتبتُ حينئذٍ الى اهلي اذكرهم برواية ارسطوفانيس التي يقال فيها ان فلاحاً طار الى السماء على منكبي خنفساء كبيرة لكي يشكو الى الاله المعبود من ويلات الحروب التي ابتلى الناس بها فوجد الاله غائباً وفي مكانهِ شيطان وهو يسحق قوات العالم كلها في هاون

وذهبت من هناك الى ليون فوجدت الناس مصممين على ادامة الحرب مع انهم كانوا لا يزالون على ولاء الامبراطورية . وقطعت الى تور ورأيت فيها لورد ليونس وشفيلد مكرتيرهُ فاعطياني رسائل لآخذها الى كاله ورسائل اخرى الى مدام بورتالس ومدام متريخ . وكانت سكك الحديد في حالة يرثى لها فقضيت ثلاثة ايام على قطع تلك الشقة القصيرة ولما وصلت الى كاله قيل لي ان مفتش جوازات السفر لا يراها الاَّ حين سفر السفينة فنزلت في السفينة ودخلت غرفة من غرفها واقفلت بابها ونمت ولم استيقظ الاَّ بعد ما سافرت السفينة بي ولم يرَ احد جوازي مما يدل على غفلة الموكلين برؤية الجوازات . ولقد كان جواسيس الالمان يدخلون فرنسا بسهولة كل مدة الحرب اذا اتوها بطريق سويسرا

( وقضى السر تشارلس دلك بقية شهور السنة في روسيا ثم رجع الى انكلترا سنة ١٨٧١ وعاد منها الى فرنسا وقت اشتداد برد الشتاء وزار اولاً معسكر الجنرال فيدهرب الذي كان يحارب في الشمال ببسالة فائقة وحضر معركة اسر فيها الفرنسيون ستين جندياً من البروسيانيين الطوال القامة الكبار الاجسام ولكن جنود فيدهرب كانت في حالة غير مرضية فلم يكن معهُ سوى اورطة واحدة من الفرسان والاي من المشاة والابين من الجنود البحارة الاَّ ان مدافعهُ كانت جديدة ورجالها من الطبقة الاولى وكان معهُ عشرون الفاً من الحرس الوطني واكثرهم حفاة من غير اردية مع اشتداد البرد وبنادقهم قديمة ولكنهم حاربوا جيداً وكان قائدهم من امهر القواد فبث في صدورهم الهمة والنخوة . وكان السر تشارلس يذهب الى دوفر من وقت الى اخر يأكل ويشتري الزاد لانهُ لم يكن يجد طعاماً في ليل . وسنقتطف بعض ما ذكرهُ عن حصار باريس في الجزء التالي